

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء



إلى الأستاذ الدكتور / محمود إسماعيل
المفكر والمؤرخ الكبير
الذي حقق التزاوج الحميم
بين الفكر الفلسفي والبحث التاريخي

أهل هبروك

obekikan.com

المقدمة



حينما أخذ الإنسان البدائي منذ فجر المدنية يقص على أبنائه قصص أسلافه ممتزجة بأساطيره ومعتقداته ، بدأ "التاريخ" يظهر إلى حيز الوجود فى صورة بدائية أولية ، وبدأ الإحساس به يتكون فى ذهن الإنسان منذ أقدم العصور. وعندما سارت البشرية قدماً فى مضمار الحضارة فى شتى أساليبها وصورها أخذ "التاريخ" يشكل أساساً جوهرياً فى تسجيل موكب البشرية الحافل الدؤوب، إذ هو المرآة أو السجل أو الكتاب الشامل الذى يقدم لنا ألواناً من الأحداث وفنوناً من الأفكار وصنوفاً من الأعمال والآثار.

ويذهب بعض المفكرين مثل "كرونتشه" إلى اعتبار "التاريخ" كله تاريخاً معاصراً، ولا يستطيع الإنسان أن يفهم نفسه وحاضره دون أن يفهم الماضى؛ بمعنى أن "التاريخ" يتألف بصورة أساسية من رؤية الماضى من خلال عيون الحاضر وعلى ضوء مشكلاته. وعلى هذا الأساس بحث فلاسفة التاريخ عن القوانين الأساسية التى يخضع لها "تاريخ" الإنسانية على مر العصور، واجتهدوا فى الكشف عن الأسباب والأحكام العامة التى تؤثر فى سير الأحداث التاريخية.

ومن هنا جاء اختيارنا لموضوع هذا الكتاب "فلسفة التاريخ"، كى نتبين - من خلاله - حركة المجتمعات البشرية وتطورها وأسباب انهيارها وسقوطها، كذلك نتبين مشكلة القوانين التى تحكم سير التاريخ وتطوره. وقد قمنا بتقسيم الكتاب إلى مقدمة وثلاثة أبواب على النحو الآتى :

الباب الأول عنوانه : " ما هي فلسفة التاريخ ؟" عرضنا فى الفصل الأول معنى كلمة "التاريخ" فى اللغة العربية وفى اللغات الأجنبية ، والفرق بين كلمات مثل "التاريخ" و"التأريخ" و"التوريخ" . وخصصنا الفصل الثانى للحديث عن "التاريخ" كعلم ، وكيف اختلفت حوله آراء الفلاسفة على مر العصور بين مؤيد ومعارض ، كما بيّنا المنهج المتبع فى دراسة "التاريخ" بوصفه علماً ؛ وهذا المنهج هو المراحل التى يسير خلالها المؤرخ حتى يبلغ "الحقيقة التاريخية" . وتناولنا فى الفصل الثالث العلاقة الجدلية بين "التاريخ" و"فلسفة التاريخ" .

أما الباب الثانى فقد جعلنا عنوانه : "الوعى التاريخى" أفردنا الفصل الأول منه لمعرفة بداية الوعى ب "التاريخ" فى العالم القديم أى فى الحضارات الموعلة فى القدم مثل : "الحضارة المصرية" و "الحضارة الصينية" و"الحضارة الهندية" ثم "الحضارة اليونانية" . وتحفظ - هذه الحضارات - بأرشيف متنوع الموضوعات يحتوى على عدد من الوثائق التى تعطى صورة عن الأحداث الواقعية ، وعلى بعض الوثائق التى يمكن اعتبارها بحق نموذجاً للكتابة التاريخية . ثم عرضنا فى الفصل الثانى - من هذا الباب - للمفهوم الدينى لـ"التاريخ" فى الديانة اليهودية التى تعد من أكثر الديانات التى تتماهى فيها الحدود الفاصلة بين ما هو مطلق وما هو نسبى ، بين المقدس والدنيوى . كما تحدثنا عن اللاهوت المسيحى الذى نظر إلى الأحداث التاريخية السابقة على الميلاد بوصفها فترة مظلمة لم يعرف الناس خلالها الله إلا عن طريق ظلال قائمة لاتعكس مجده الحقيقى . فالتاريخ يبدأ بآدم ثم يبدأ بداية جديدة مع يسوع "المسيح" ، والزمن الفاصل بين هاتين البدايتين ليس إلا شكل من أشكال الجاهلية الإنسانية . أما فى دولة الإسلام ، فإن الكتابة التاريخية تطورت تطوراً هائلاً وشملت مناحى الحياة المختلفة .

والفصل الثالث والأخير يتناول "الوعي التاريخي في العصر الحديث"، حيث يتحدث علماء "التاريخ" في الغرب عن طفرة الدراسات التاريخية في العصر الحديث، ويرجعون - بهذه الطفرة - إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر الذي وضع المناهج المتميزة للمعرفة التاريخية، وأحدث نوعاً من الثورة الكوبرنيقية أدت إلى تقديم علم "التاريخ" في صورة جديدة.

والباب الثالث عنوانه: "فلاسفة التاريخ" عرضنا في الفصل الأول للمؤسس الحقيقي لـ "فلسفة التاريخ" وهو "فيكو" الذي احتل مكانة متميزة في التراث الغربي بكتابه العظيم "العلم الجديد"، ومهمة هذا العلم أن يعرف الشعوب في أصولها وتقدمها وإزدهارها وسقوطها، وأن يتتبع المسار التاريخي من البربرية إلى الحضارة والمدنية. كما يعرض "فيكو" للقانون الذي يحكم الأمم والشعوب، أي يعرض للمراحل الرئيسية التي تمر بها الإنسانية وهي: "المرحلة الإلهية" و"المرحلة البطولية" و"المرحلة البشرية". وتناولنا في الفصل الثاني نظرية "كوندرسيه" في "فلسفة التاريخ"، حيث وضع قانوناً عاماً لسير التاريخ الإنساني يقوم على أساس النظر إلى المجتمعات الإنسانية وتاريخ البشر ككل نظرة كلية عامة، تُعرّف - تلك النظرة - بظاهرة "تشخيص الإنسانية" أي تشبيه الإنسانية بشخص واحد. كما وضع "كوندرسيه" تصميماً لتاريخ الحضارة على ضوء فكرة "التقدم"، وألف صورة تاريخية لتقدم العقل الإنساني وركز على تأكيد الوحدة التي لا تنفصم بين التقدم الفكري والحرية والفضيلة. أما الفصل الثالث، فقد عرضنا فيه لـ "فلسفة التاريخ" عند "هيجل"، والطرق المختلفة التي يمكن أن نكتب بها "التاريخ"، وقد حصرها "هيجل" في ثلاث: "التاريخ الأصلي" و"التاريخ النظري" و"التاريخ الفلسفي". ثم أوضحنا السمة الأولى لفلسفة التاريخ الهيجلية وهي أنها تجعل من "التاريخ" عرضاً للروح، فعلى المسرح

الذى تشاهد الروح عليه - ونقصد به "التاريخ الكلى" - تكشف الروح عن نفسها فى حقيقتها الأكثر عينية . فالروح منذ البداية تحمل إمكانات كثيرة تفضها فى مراحل التاريخ المختلفة مكتسبة معرفة ووعياً بما هى عليه فى ذاتها ، ومن هنا اقتضى التحقق الكامل للروح أن تنمو المجتمعات لكى تعبر تعبيراً كاملاً عن العقل وتجسده . وما دامت الروح تحقق نفسها فى الزمان ، فإن هدفها هو أن تتحقق فى "التاريخ" وأن تصل إلى فهم نفسها ومعرفة ذاتها .

وفى النهاية كل ما نتمناه هو أن تحقق هذه الصفحات الغرض الذى وضعت من أحله ، والله وحده ولى التوفيق

د. أمل مبروك